

"النماذج المعرفية المركبة" لدى "عبد الوهاب المسيري" والنظرية الاجتماعية: دراسة تأصيلية

كمال محمد خير ميرزا¹، عايد عواد الوريكات²

ملخص

توحيد النظريات الاجتماعية المختلفة في إطار نظرية واحدة كبرى، أو منظور سوسولوجي موحد، كان وما زال مشروعاً قائماً ضمن التراث النظري والأكاديمي لعلم الاجتماع. يجادل هذا البحث بأنّ "النماذج المعرفية المركبة" كما يطرحها "عبد الوهاب المسيري"، وكما تتجسد من خلال مفهوميه للـ "العلمانية الشاملة" و"الترانسفير"، تمثل جميعها إطاراً نظرياً يمكن من خلاله توحيد النظريات الاجتماعية، أو "المقاربات المنهجية الكبرى" في علم الاجتماع وفق تعبير (جاك هارمان) في كتابه "خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية"، وتلافي التعارض أو التناقض الظاهري بين هذه النظريات والمقاربات.

الكلمات الدالة: الترانسفير، جاك هارمان، عبد الوهاب المسيري، العلمانية الشاملة، النظريات الاجتماعية، النماذج المعرفية المركبة.

تمهيد

ويعرّف (هارمان) النموذج باعتباره: "مزيجاً من افتراضات فلسفية، وأنموذجات نظرية، ومفاهيم مفتاحية، ونتائج بحوث قيمة.. تشكل في مجموعها عالماً مألوفاً للتفكير لدى الباحثين في فترة محددة من تطوّر تخصص علمي معيّن" (هارمان، 2010، 16).

ويعرّف النظرية [نقلاً عن كارل بوبر] بأنّها: "جهازاً مفاهيمياً ذا طابع رمزي ومنطقي، يستجيب لعدة شروط، منها الملاءمة في مواجهة إشكالية محددة وموضوعات معينة، والتماسك فيما يخص مجموعة المفاهيم والقضايا التي تستعملها النظرية، والاختبار في مواجهة إجراءات عملية "ميدانية" توظّف لجمع المعطيات (البيانات)" (هارمان: 2010: 15).

ويعرّف "الخطاب" بأنّه: "مجموعة من الرموز تتمتع ببناء نحوي، وقواعد دلالية تمنح مرجعية ومعنى لمفاهيم ذلك الخطاب" (هارمان، 2010، 16)، أي أن مصطلحات ومفاهيم الخطاب تستمد تماسكها واتساقها وصلاحتها من الخطاب نفسه، وليس من خلال اختبارها في مواجهة إجراءات عملية عبر جمع المعطيات.

في كتابه بعنوان "خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية" [العنوان الأصلي للكتاب باللغة الفرنسية هو: Les Langages De La Sociologie]، والذي يستعرض من خلاله ما يطلق عليه عادة مسمّى "النظريات الاجتماعية"، أو "التيارات المعرفية الرئيسية"، أو "المقاربات المنهجية الكبرى" في حقل العلوم الاجتماعية.. يطرح جاك هارمان (Jaques Herman) الأسئلة التالية: "هل الأنموذجيات [أي الأنموذجيات السوسولوجية] معزولة عن بعضها البعض؟ هل تشكل عوالم افتراضية عشوائية؟ أم أشكالاً من حياة علمية مجرّاة؟" (هارمان، 2010، 19).

ويقوم العرض الذي يقدمه (هارمان) والأسئلة التي يطرحها على التمييز بين ثلاثة مفاهيم رئيسية هي: الأنموذج (Paradigm)، والنظرية (Theory)، والخطاب (Discourse).

¹ طالب دكتوراه، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب، الجامعة الأردنية.

² أستاذ، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب، الجامعة الأردنية.

تاريخ استلام البحث 2022/6/20 وتاريخ قبوله 2022/10/14.

"الخطابات السوسولوجية في علم الاجتماع" تذكر بطروحات "عبد الوهاب المسيري" فيما يتعلق بـ "النماذج المعرفية المركبة".

ويعرف "المسيري" النموذج عموماً بأنه:

"بُنية تصوّرية يجزّدها عقل الإنسان من كمّ هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق والوقائع، فهو يستبعد بعضها باعتبارها غير دالة (من وجهة نظره)، ويستبقي البعض الآخر، ثم يربط بينها وينسّقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح (حسب تصوّره) مترابطة، ومماثلة في ترابطها للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع.. وكلّ هذا يعني أنّ عقل الإنسان ليس خاملاً، يتلقّى الواقع بشكل سلبي ويسجّله بشكل مباشر، وإنّما هو مبدع وخالق، يعيد صياغة الواقع من خلال النماذج المعرفية والإدراكية" (المسيري، 2008، م 2: 444).

أمّا "النموذج المعرفي" فيعرّفه "المسيري" بأنه:

"النموذج الذي يحاول أن يصل إلى الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني (وكلمة كلي في استخدامنا تفيد الشمول والعموم..) وتدور النماذج المعرفية حول ثلاثة عناصر أساسية: الإله . الطبيعة . الإنسان. وفي محاولة دراسة صورة الإنسان الكامنة في أي نموذج معرفي يستطيع الدارس أن يطرح مجموعة من الأسئلة تدور حول ثلاثة محاور أساسية يجمعها كلّها عنصر واحد هو التجاوز: أ) علاقة الإنسان بالطبيعة/ المادة. ب) الهدف من الوجود. ج) مشكلة المعيارية (هل هناك معيارية أساساً؟ ومن أين يستمد الإنسان معياريته؟)" (المسيري، 2008، م 2: 446).

وفي ضوء التعريفات أعلاه، يميّز "المسيري" بين نوعين من النماذج المعرفية: "النماذج الاختزالية" و"النماذج المركبة". وكذلك ففتين من النماذج: "أقل تفسيرية" و"أكثر تفسيرية".

ويتجسّد أي نموذج معرفي على أرض الواقع من خلال "متتالية نماذجية" أخذة بالتحقق عبر الزمن، وذلك عبر سلسلة حلقات رئيسية وفرعية/ جزئية متعاقبة، تتضمن كلّ منها مجموعة من السمات/ العمليات/ الإجراءات/ السيرورات المتداخلة والمتزامنة (انظر: المسيري، 2008، م 1: 242).

ويُفصّل أي نموذج معرفي ومنتاليته النماذجية عن جوهره ووجهه الحقيقي من خلال ما يسمّيه "المسيري" للحظة

ويحسب هذا التمييز الذي يقدمه (هارمان) فإنّ الأنموذج أو (الباراديم) هو مجموعة من "الكليات غير المنتظمة، وغير المنجزة بشكل نهائي، والتي تمثّل برامج بحث، وحقولاً للممكّنات العلمية، وتوجّه الباحثين في تخصص معين من دون أن يؤدي ذلك إلى تحديد مسبق لخياراتهم" (هارمان، 2010، 19).

أمّا بالنسبة للنظرية والخطاب، فهما يشتركان بكونهما "فرضاً يتناول ظاهرة ما أو مشكلة ما"، إلا أنّ الخطاب يحتفظ لنفسه بطابع الصواب أو اليقين، ولذلك هو لا ينحو إلى مراجعة نفسه، وعلاقته بالخطابات والنظريات الأخرى تأخذ شكل الصدام أكثر مما تأخذ شكل المراجعة المستمرة.

في ضوء هذا كلّه، ينطلق (هارمان) في كتابه من فرضية أساسية قوامها أنّ ما اصطُح على تسميتها بـ "نظريات" أو "تيارات" أو "مقاربات منهجية" في علم الاجتماع هي في حقيقة الأمر "أنموذجيات سوسولوجية"، وهذه الأنموذجيات السوسولوجية (البرادايما) هي أقرب للخطابات منها للنظريات كونها "غير قابلة للاختبار"، و"لا تتمتع بالتماسك المنطقي المميّز للنظرية"، و"تمثّل كليات غير منتظمة"، و"غير منجزة بشكل نهائي".

هذه الطبيعة الخطابية أو هذا المنظور الخطابي للأنموذجيات السوسولوجية كما يتناولها (هارمان) تقضي إلى عدد من الإشكاليات المرتبطة بالممارسة العلمية نفسها و"سوسولوجية" علم الاجتماع نفسه.. مثل: تحوّل الأنموذج إلى أيديولوجية علمية، وتحوّل هذه الإيديولوجيا بدورها إلى "فكرة دوغمائية" و"إمبريالية إستيمولوجية".

كما تقضي فكرة خطابية الأنموذجيات السوسولوجية إلى مشكلة "النسبية"، وهي المشكلة التي دفعت (هارمان) لطرح الأسئلة التي استهلّ بها هذا البحث، والذي هو بدوره دراسة تأصيلية تهدف إلى اقتراح إجابة معرفية محددة عن أسئلة (هارمان) في ضوء مفهوم "النماذج المعرفية المركبة" الذي يطرحه "عبد الوهاب المسيري".

النماذج المعرفية المركبة:

برغم اختلاف المصطلحات و"الرتانة" الأكاديمية، إلا أنّ الأفكار والافتراضات والإشكاليات التي يطرحها (هارمان) في

تندرج تحتها أغلب التعريفات الشائعة للعلمانية، ويعتبرها نموذجاً اختزالياً أقل تفسيرية.

وترتبط فكرة "المسيري" التأسيسية بوجود علمانيتين اثنتين وليس مجرد علمانية واحدة فقط بحقيقة أنّ الواقع الإنساني يتكوّن من بُنيتين اثنتين (أو مستويين) وليس بُنية واحدة: البنية الظاهرة (ويقابلها العلمانية الجزئية)، والبنية الكامنة (ويقابلها العلمانية الشاملة).

ويعرّف "المسيري" "العلمانية الشاملة"، أو ما يطلق عليها أيضاً "العلمانية الطبيعية/ المادية" أو "العلمانية العدمية" بكونها:

"رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل فقط الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة، وإنما تفصل كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الأمر ثم كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته، إلى أن يتم نزع القداسة تماماً عن العالم (الإنسان والطبيعة). وهي شاملة، فهي تشمل كلاً من الحياة العامة والخاصة، والإجراءات والمرجعية" (المسيري، 2008، م 2: 472).

أما بالنسبة للمتتالية النماذجية العلمانية، أو "المتتالية العلمانية"، فهي تتكون من الحلقات الرئيسية والفرعية المبيّنة في جدول رقم (1) التالي:

النماذجية"، وهي لحظة "تعيّن النموذج وتبلوره". وتكون هذه اللحظة النماذجية بمثابة "لحظة الصفر" أو "المُطلق" بالنسبة لهذا النموذج المعرفي ومتتاليته، وذلك باعتبار "المُطلق" هنا هو "المركز الذي يتجاوز كل الأجزاء ولا يتجاوز شيء، وهو المبدأ الواحد والركيزة أو المرجعية النهائية" التي تحدد "النسق الفكري" لهذا النموذج المعرفي.

وقد يأتي تجسّد وتحقق اللحظة النماذجية على أرض الواقع على المستوى الماكرو [مثل تحليل المسيري لظاهرة النازية]، أو الميكرو [مثل تحليل المسيري لفيديو كليب روبي]، أو المستوى البيئي أو المتوسط أو المؤسسي [مثل تحليل المسيري للمتخف].

العلمانية الشاملة:

انطلاقاً من مفهومه للنماذج المعرفية المركبة، يقدم "المسيري" طروحاته حول "العلمانية الشاملة" من أجل تفسير مجمل ما اصطلح على تسميته بتجربة "الحدائثة" الغربية في مختلف أبعادها الفلسفية والمعرفية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، ومن جملة ذلك بالضرورة علم الاجتماع الغربي باعتباره ابناً لهذه الحدائثة ومحاولة لتفسيرها وتأطيرها وتحقيق مشروعها على أرض الواقع.

و"العلمانية الشاملة" وفق منظور "المسيري" هي نموذج معرفي مركّب أكثر تفسيرية. في مقابل "العلمانية الجزئية" التي

جدول رقم (1)
تلخيص للحلقات الرئيسية والفرعية للمتتالية النماذجية العلمانية لدى عبد الوهاب المسيري
(انظر: المسيري: 2008، م 1، 222-231)

الحلقة الرئيسية	الحلقات الفرعية	المظاهر/ السمات/ السيرورات
1) الحلول أو الكمون: يحلّ مركز الكون في العالم ويصبح كامنا (حالاً) فيه غير مفارق له، وتختفي المرجعية المتجاوزة التي تقترض أن هناك عالماً وراء العالم المادي/ عالم الحواس الخمس.	أ. وحدة الوجود الروحية. ب. وحدة الوجود المادية.	- يسمّى مركز الكون الحال فيه "الإله" أو "روح العالم". - يتوحد الإله مع الكون في جوهر واحد. - مركز الكون الحال فيه يمكن أن يسمّى "الطبيعة/ المادة" أو "القوانين الطبيعية". - تتحوّل وحدة الوجود الروحية (اسماً) إلى وحدة الوجود المادية (فعلاً).
2) الثنائية الصلبة (الإنسان في مقابل الطبيعة): يحلّ مركز الكون أو "المبدأ الواحد" في بداية الأمر في كلّ من الإنسان والطبيعة بدرجة متساوية.	أ. الإنسان كمركز للحلول.	- الإنسان يواجه الكون دون وسائط، يتمركز حول نفسه، ويضع نفسه في مركز الكون، ويعلن أنّه سيده. - يصبح الإنسان مرجعية ذاته، مكتفياً بذاته، لا يشير إلا إليها. - في البداية تكون الإنسانية جمعاء هي مركز الحلول فتظهر النزعة الإنسانية (الهيومانية، أو الواحدية الإنسانية). يحاول الإنسان تأكيد جوهره الإنساني المستقل عن الطبيعة. تكون هذه الإنسانية مصدر تماسك العالم. - افتراض أن الإنسان يسبق الطبيعة، والنظر إليها باعتبارها "مادة استعمالية" يعيد صياغتها في الإطار المادي ليسخرها لصالحه (النزعة البروميثية الفأوستية).
ب. ظهور نزعات إنسانية (تقترض أن مركز الكون البشر أو من البشر)، واحدية (ترد الكون إلى عنصر واحد)، صلبة (لها مركز)، إمبريالية (تحاول أن توظف الطبيعة والآخر).		- في غياب أية معايير متجاوزة للإنسان يصبح موضع الحلول أمة أو عرقاً ما (فتظهر الإمبريالية والعنصرية والصهيونية). - موضع الحلول قائداً أو زعيماً (فتظهر النازية والفاشية). - موضع الحلول فرداً عادياً (فتظهر نزعة نفعية شخصية مادية حادة وتوجّه لا يقل حدة نحو اللذة).
ج. الطبيعة كمركز للحلول.		- يكتشف الإنسان أنّ الطبيعة تقف صلبة، متمركزة حول نفسها، مرجعية ذاتها، مكتفية بذاتها، لا تشير إلا لنفسها، لا تكثرث بالإنسان (أفراحه وأتراحه وأحلامه وأوامه). - الواحدية الطبيعية/ المادية الصلبة. - يسود الافتراض أن الطبيعي يسبق الإنساني.
د. صراع بين المركزين الإنسان والطبيعة.		
3) انحلال الثنائية الصلبة إلى واحدية مادية صلبة.	أ. يكتشف الإنسان عدم اكتراث الطبيعة/ المادة به.	

المظاہر/ السمات/ السيرورات	الحلقات الفرعية	الحلقة الرئيسية
<ul style="list-style-type: none"> - يتحقق الإنسان من أن ذاته طبيعية/ مادية. - قوانين العقل هي نفسها قوانين الطبيعة/ المادة. - الطبيعة/ المادة وقوانينها المصدر الوحيد لمعايير الإنسان. - الطبيعة/ المادة المصدر الوحيد لمنظومات الإنسان المعرفية والأخلاقية والجمالية. - النزوع الإنساني (الهيوماني) وهم. 	<p>ب. تركز الإنسان حول ذاته الطبيعية.</p>	
<ul style="list-style-type: none"> - تزول الثنائية الصلبة وتسود الواحدة الطبيعية/ المادية الصلبة. - تستمر بعض جيوب الواحدة الإنسانية. 	<p>ج. التمرکز حول الموضوع الطبيعي.</p>	
<ul style="list-style-type: none"> - يصبح كل مجال منها موضعاً للحلول، الواحد تلو الآخر. - كل مجال يتحرك حسب قوانينه (الكامنة أو الحالة فيه). 	<p>أ. تقسيم حياة الإنسان إلى مجالات مختلفة.</p>	<p>4) تفكيك الإنسان (على مراحل): ردّ الإنسان إلى الطبيعة/ المادة.</p>
<ul style="list-style-type: none"> - يصبح لكل مجال كيانه وآلياته وأهدافه وأغراضه المستقلة عن الإنسان والمجتمع الإنساني. - كل مجال يصبح مرجعية ذاته مكتفياً بذاته. 	<p>ب. استقلال المجالات.</p>	
<ul style="list-style-type: none"> - يستمد كل مجال معياريته من ذاته. - يتم الحكم على كل مجال من منظور مدى كفاءته في تحقيق أغراضه. - يكتسب كل نشاط شرعيته من مدى نجاحه في تحقيق أهدافه. 	<p>ج. المجال معيارية ذاته.</p>	
<ul style="list-style-type: none"> - يفلت كل مجال، الواحد بعد الآخر، من قبضة الإنسان ولا يكثرث به. - ينفصل كل مجال عن أي غائية أو معيارية خارجه عنه (سواء أكانت دينية أم أخلاقية أم إنسانية) ويتحرر منها. - تتفتت مجالات الحياة الإنسانية وتحوّل إلى مجالات غير مترابطة. - حينما تواجه الذات الإنسانية العالم تجده منفصلاً عنها، غريباً عليها، مفتتاً (مجرد مادة نسبية محايدة خاضعة لحركة المادة وحسب). 	<p>د. انفصال العالم عن الذات الإنسانية.</p>	
<ul style="list-style-type: none"> - تنتقل هذه العملية من مجالات الحياة العامة إلى حياة الإنسان الخاصة (الأسرة - أوقات الفراغ). - تنتقل هذه العملية من خارج الإنسان (السوق - المصنع) إلى داخل ذاته أيضاً (أحلامه - مثالياته). 	<p>هـ. انفصال حياة الإنسان الخاصة وذاته.</p>	
<ul style="list-style-type: none"> - تتصاعد هذه العملية إلى أن يصبح المجتمع بأسره مجالات غير مترابطة، غير مترابطة، متناثرة، لا يربطها رابط. - يتزايد تحدّد النشاطات والوظائف، وعدم تشابكها مع أية نشاطات أو وظائف أخرى. 	<p>و. تساعد التفتت والانفصال.</p>	

المظاهر/ السمات/ السيرورات	الحلقات الفرعية	الحلقة الرئيسية
<p>- يتم النظر للإنسان منعزلا عن كلياته الإنسانية، وعن مضمونه الاجتماعي المركب.</p> <p>- النظر للإنسان كإنسان إنسان "اقتصادي" خاضع للحركات الاقتصادية، أو إنسان "جسماني" خاضع لقوانين الغريزة.</p> <p>- إنسان لا يسأل أي أسئلة كلية نهائية، وإن جال في صدره شيء منها فإنه يجيب عنها إجابات مادية.</p>	أ. الإنسان المعزول.	5) إعادة صياغة صورة الإنسان.
<p>- يصبح الإنسان ظاهرة واحدة غير مركبة.</p> <p>- إنسان خاضع لكيانات مجردة أكبر منه يذوب فيها، ويرد إليها، ولا ترد هي إليه (السوق، التاريخ، الجسد، الدولة).</p>	ب. الإنسان الواحدي.	
<p>- لأنَّ الإنسان يعيش في الزمان والمادة وحسب، عادة ما تكتسب هذه الكيانات مجردة أبعادا مادية.</p> <p>تكتسب هذه الكيانات مجردة كثيرا من سمات الطبيعة/ المادة (نظام واحد مغلق، كلي شامل، لا يعرف التثانيات ولا الثغرات ولا أي انقطاع، مكتف بذاته، مرجعية ذاته، لا يكثرث بالغائية الإنسانية، حتمي لا يعرف القيمة، لا يمكن تجاوزه).</p>	ج. الكيانات المجردة.	
<p>يمكن تسمية هذه الكيانات المجردة "المطلق العلماني"، وهي كيانات تهيمن على الإنسان تماما.</p>	د. المطلق العلماني.	
<p>- تبسيط ظاهرة الإنسان.</p> <p>- يصبح الإنسان مجرد عناصر موضوعية (قابلة للدراسة) غير شخصية، متماثلة إلى حد كبير، يسهل التعامل معها (معالجتها) ودراستها والتحكم فيها وإخضاعها لنماذج تحليلية بسيطة (عادة كمية)، وقواعد إجرائية ذات طابع مادي كمي.</p>	هـ. الترشيح المادي للحياة.	
<p>- استبعاد كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية بشكل تدريجي ومتصاعد في مختلف مجالات الحياة.</p> <p>- استبعاد كل العناصر الكيفية والمركبة والغامضة والمحفوفة بالأسرار.</p> <p>- يصبح كل مجال خاضعا للقوانين المادية الكامنة فيه.</p> <p>- يتحوّل الواقع إلى مادة استعمالية.</p> <p>- يتحوّل الإنسان إلى كائن وظيفي أحادي البعد.</p> <p>- توظيف (حوسلة: تحويله إلى وسيلة) كل من الواقع المادي والإنساني بكفاءة عالية.</p> <p>- السعي لتحقيق حلم البيوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية (ونهاية التاريخ).</p> <p>- برمجة كل شيء والتحكم في كل شيء وضمن ذلك الإنسان نفسه، ظاهره وباطنه.</p> <p>- ضمور الحيّز الإنساني واختفائه وإنكار التجاوز الكامل (شكل من أشكال العلمنة الشاملة).</p>		6) الترشيح المادي: إعادة صياغة الواقع المادي في إطار نموذج الطبيعة/ المادة، بالشكل الذي يحقق التقدّم المادي وحسب.

المظاهر/ السمات/ السيرورات	الحلقات الفرعية	الحلقة الرئيسية
<p>- الإنسان مرجعية ذاته ولكنه في الوقت نفسه يتبع القانون الطبيعي.</p> <p>- الإنسان ككائن غير قادر إلا على التمرکز حول مصلحته (منفعته ولذته) المادية وبقائه المادي (وليس حول الإنسانية كمفهوم أخلاقي مطلق متجاوز لقوانين المادة مفارق لها).</p> <p>- إنسان غير قادر على الاحتكام إلى أية أخلاقيات إلا أخلاقيات القوة المادية.</p>	<p>أ. الإنسان الطبيعي/ المادي.</p>	<p>7) الإمبريالية (باعتبارها صنو للعلمانية الشاملة).</p>
<p>- بدلا من مركزية الإنسان في الكون تظهر مركزية "الرجل الأبيض".</p> <p>- بدلا من الدفاع عن مصالح الجنس البشري بأسره يتم الدفاع عن مصالح الجنس الأبيض.</p> <p>- بدلا من ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة، وتأكيد أسبقية الإنسان، تظهر ثنائية الإنسان الأبيض في مقابل الطبيعة/ المادة وبقية البشر الآخرين (الذين يصبحون جزءا لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة).</p> <p>- استخدام القوة بدلا من الاحتكام إلى القيم الإنسانية.</p> <p>- يصبح هم الإنسان الأبيض غزو الطبيعة المادية والبشرية، وحوسلتها، وتوظيفها لحسابه واستغلالها، بكل ما أوتي من إرادة وقوة.</p> <p>- العلمانية الشاملة هي "النظرية" والإمبريالية هي "الممارسة".</p>	<p>ب. مركزية "الرجل الأبيض".</p>	
<p>- الإمبريالية في الداخل الأوروبي تأخذ شكل الدولة العلمانية الرشيدة (الملكيات المطلقة، الدول الديمقراطية منذ الثورة الفرنسية، الحكومات الشمولية).</p> <p>- في مرحلة لاحقة تأخذ الإمبريالية في الداخل الأوروبي شكل "الإمبريالية النفسية" (تصعيد معدلات الاستهلاك، الاستهلاك باعتباره السبيل الوحيد أو الأساسي لتحقيق الذات).</p> <p>- فرض الواحدية الطبيعية/ المادية على المجتمع (ترشيده في الإطار المادي لصالح الطبقات الحاكمة).</p>	<p>ج. "استعمار الحياة" (إمبريالية الداخل).</p>	
<p>- تأخذ الإمبريالية في بقية العالم أشكالا كثيرة (الاستعمار الاستيطاني، الاستعمار التقليدي، الاستعمار الجديد، النظام العالمي الجديد).</p> <p>- فرض الواحدية الطبيعية/ المادية على بقية المجتمعات الإنسانية وترشيدها في الإطار المادي لصالح المجتمعات الغربية ككل.</p>	<p>د. استعمار بقية العالم (إمبريالية الخارج).</p>	

المظاهر/ السمات/ السيرورات	الحلقات الفرعية	الحلقة الرئيسية
<p>- تطبيق عمليات الترشيد المادي على العالم بدرجات متزايدة من خلال الاستعمار أولاً، والنخب الحاكمة المحلية المغتربة ثانياً.</p> <p>- يسود التجانس الكامل بين معظم أو كل المجتمعات البشرية (تتبع نمطا واحدا وقانونا عاما واحدا/ قانون التطور والتقدم العالمي الحتمي من منظور العلمانية الإمبريالية الشاملة).</p> <p>- يصبح العالم مكوّن من وحدات قد تكون غير مترابطة ولكنّها متشابهة (ما سمّاه ماكس فيبر القفص الحديدي).</p> <p>- تمحى الثنائيات (خالق/ مخلوق، جسد/ روح، ظاهر/ باطن، عام/ خاص).</p> <p>- تمحى تركيبية الإنسان وقدرته على التجاوز (تجاوز الطبيعة/ المادة وذاته الطبيعية/ المادية).</p> <p>- يختفي الإنسان الفرد، الحر، الواعي، المسؤول أخلاقيا واجتماعيا.</p> <p>- نزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة).</p> <p>- السقوط في قبضة الصيرورة المادية.</p> <p>- ظهور الإنسان الطبيعي الذي يعرف في ضوء احتياجاته الطبيعية [أو حتى إمكاناته الطبيعية].</p> <p>- الإنسان الطبيعي فرد خالص (مرجعية ذاته) بتوجّه توجّها حاداً نحو المنفعة واللذة (منفعته ولذته).</p> <p>- ضمور الحس الاجتماعي.</p> <p>- تفرغ كثير من الظواهر الاجتماعية من مضمونها الاجتماعي.</p> <p>- سيطرة قيم التعاقدية والحياد (الحياد يخفي في واقع الأمر قيم الصراع والدارونية).</p> <p>- ينقسم المجتمع إلى الأقوياء المنتصرين (الإنسان الأعلى السوبرمان - ما فوق الإنسان)، والضعفاء المهزومين (الإنسان الأدنى السيمان - ما دون الإنسان).</p> <p>- إخفاق الإنسان في تحقيق ذاته وفرديته رغم محاولاته الدائبة.</p> <p>- المؤسسات الضخمة (الدولة - الإعلام) ترشد بيئة الإنسان من الخارج وترشده هو من الداخل، ويتم فرض قوالب وأنماط محددة، ويسود التتميط.</p> <p>- يتشياً الإنسان ويتحوّل من غاية لوسيلة.</p> <p>- انقسام حياة الإنسان إلى مجالات مختلفة متشظية، وظهر معايير مختلفة لمجالات الحياة.</p> <p>- ظهور معايير صارمة للحياة العامة (العالم الظاهر الكمي).</p> <p>- تغلغل العلمنة في الحياة الخاصة وتفرض على الإنسان معايير النسبية والصراع، وبتزايد الارتباط بالعالم الحسي، عالم الآن وهنا، عالم الجسد والجنس.</p> <p>- يضمّر الإحساس بالتراث والتاريخ والهوية والخصوصية.</p>		<p>(8) تصاعد عمليات الترشيد المادي، وتزايد تساقط الحدود والخصوصية وتحوّل العالم كلّهُ إلى "مادة استعمالية"/ سوق ضخمة.</p>

المظاهر/ السمات/ السيرورات	الحلقات الفرعية	الحلقة الرئيسية
<p>- يظل هناك إحساس بالكليات، ولكنها كليات مادية (مطلقات علمانية).</p> <p>- مع أنّ هذه الكليات تتحرّك في الحيز الطبيعي/ المادي، إلا أنّها متجاوزة لحركة المادة والذرات المتشظية.</p> <p>- الكلّ المادي المتجاوز الذي يكون بمنزلة المركز المادي للعالم.</p> <p>- تسود النسبية، ولكنها غير مطلقة بسبب وجود الكل المادي المتجاوز الذي يولّد منه الإنسان الحديث معيارية (ما).</p> <p>- عصر التحديث والحداثة والمادية البطولية.</p> <p>- حلم التجاوز من خلال المادة.</p> <p>- العقلانية المادية.</p>		<p>(9) تفكيك الإنسان تماماً وسيادة النسبية.</p>
<p>- يكشف الإنسان أنّ الطبيعة الخارجية (داروين) والطبيعة الداخلية (فرويد) هي في واقع الأمر عالم من الفوضى والصراع والقوى المظلمة والظالمة، لذا هي لا تصلح مصدراً للقيمة.</p> <p>- تسقط الطبيعة/ المادة باعتبارها مركزاً (تماماً كما سقط الإنسان من قبل)، وتسود الواحدية المادية التي لا مركز لها (الواحدية السائلة).</p> <p>- ينتقل العالم من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة.</p> <p>- الانتقال من عالم متماسك فيه معيارية (حتى وإن كانت مادية) إلى عالم مفكك بلا معيارية.</p> <p>- الانتقال من عصر التحديث/ الحداثة إلى عصر ما بعد الحداثة، عصر البرجماتية واختفاء الذاكرة والرغبة في التجاوز.</p> <p>- اختفاء الذات والموضوع.</p> <p>- اختفاء المركز (الإنساني والطبيعي).</p> <p>- اللاعقلانية المادية.</p>		<p>(10) تقويض "الموضوع" الطبيعي/ المادي (مثلما تمّ تقويض الذات الإنسانية سابقاً).</p>
<p>- فكر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد.</p> <p>- التأكيد على أنّ العالم لا مركز له، وأنّ كلّ الأطراف متساوية، وأنّ النسبية أمر مطلق.</p> <p>- إذا كان النظام العالمي الجديد يؤكّد على مستوى النظرية أنّه لا مركز له، فإنه على مستوى الممارسة يتصرّف باعتبار أنّ الغرب، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، له اليد الطولى في عالم أحادي القطب.. فهو يشكل المركز في واقع الأمر.</p>		<p>(11) عولمة العلمانية في مرحلة السيولة (كما سبقت عولمتها في حالة الصلابة): ظهور فكر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد.</p>

وبحسب "المسيري" فإن هذا المُطلق يمكن أن يتخذ عدة أسماء ويتبدّى من خلال عدة أشكال (اليد الخفية وآليات السوق عند آدم سميث، وسائل الإنتاج عند ماركس، الجنس عند فرويد، الروح المطلقة عند هيجل، قانون البقاء عند

وبالنسبة للحظة النماذجية العلمانية، أو لحظة الصفر العلمانية، أو "المُطلق العلماني"، فيعرّفها "المسيري" باعتبارها "نسق فكري ينكر أي مرجعية متجاوزة لهذه الدنيا، ويستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية كامنة في الطبيعة/ المادة".

العالمي هو أن جذوره كامنة في النفس البشرية نفسها.

- النموذج التحديتي العلماني الشامل هو تعبير عن نمط متكرر، ونزوع إنساني كوني، وهو النزوع الجيني، ورغبة الجزء في الذوبان في الكل، والإنسان في الطبيعة/ المادة والعودة إلى الرحم (الكوني).

- العلمانية ليست مقصورة على الزمان والمكان الغربيين. في ضوء هذه الاستدراكات يأتي تنبيه "المسيري" إلى ضرورة تمييز الباحثين بين "المتتالية الافتراضية المجردة"، و"المتتالية المتحققة المتعينة" (انظر: المسيري، 2008، مجلد 2، 231-258)، وهو التنبيه الذي أخذ "المسيري" نفسه بعين الاعتبار من خلال توزيع طروحاته في كتابه "العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة" على مجلدين: المجلد الأول ويتضمن النظرية أو التأطير النظري إذا جاز التعبير، والمجلد الثاني يتضمن التطبيق.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ "المسيري" في المجلد الثاني [التطبيقي] يورد بعض مؤشرات "العلمنة الشاملة" وإشكالياتها. ولكن غالبية هذه المؤشرات هي أقرب إلى المظاهر أو السمات العامة المصاحبة لعمليات العلمنة الشاملة أو الناجمة عنها، منها إلى مؤشرات معرفة إجرائياً وقابلة للقياس كمياً كجزء من مقياس يُستخدم لهذه الغاية، وذلك باستثناء عدد محدود من المؤشرات المحددة والقابلة للتكميم مثل "الإحجام عن الزواج والإنجاب"، و"شيوخ البغاء" ومن ثم "اختفائه" أو تحوُّله إلى "مؤسسة هامشية"، و"تزايد السكان" في المراحل الأولى ومن ثم "تناقصهم".

"الترانسفير كروية معرفية":

بموازاة "اللحظة النماذجية العلمانية" يتناول "المسيري" ظاهرة "الترانسفير" التي تعدّ أهم تجليات النموذج العلماني (انظر: المسيري، 2008، م 1، 251-261). وبحسب "المسيري" فإنّ "الترانسفير" هي ظاهرة تتعدى معناها الحرفي الذي يشير إلى طرد عنصر سكاني من محل إقامته وإعادة توطينه في مكان آخر، فالترانسفير كتجلٍ للنموذج العلماني هو:

- تعبير عن شيء جوهرى وبنوي في الحضارة الغربية الحديثة.
- ليس مجرد فعل سياسي أو رغبة أيديولوجية، وإنما

داروين، إرادة القوة عند نيتشه، التقدّم اللانهائي في الحضارة العلمانية، عبء الرجل الأبيض في التشكيل الاستعماري الغربي، روح التاريخ عند الهيجلين). وكلّ هذه المفاهيم لا تعدو عن كونها تنوعاً سطحياً على مفهوم الطبيعة/ المادة" (المسيري، 2008، م 2: 473).

ولكن حتى لا تتحول "العلمانية الشاملة" إلى ضرب من الخطاب، أو الإيديولوجيا العلمية، أو الفكرة الدوغمائية في ضوء ما سبق وأن أشار ونبّه إليه (هارمان)، فإنّ "المسيري" يورد عدداً من الإيضاحات أو الاستدراكات أو المحاذير التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار عند التعامل مع مفهومه للمتتالية العلمانية (انظر: المسيري، 2008، م 1، 231-234):

- المتواليّة العلمانية، بكونها متتالية "مجردة"، فإنّها تتحقق بطرق وأشكال مختلفة، ولا يلزم أن تتحقق كلّها، وبالطريقة نفسها في كل زمان ومكان، وإنما تتحقق بعض حلقاتها وحسب في بعض الأزمنة والأمكنة بطرائق متعددة.
- لا يلزم أن تتبدى كلّ سمات نموذج العلمانية الشاملة في كل ظاهرة أو مجال إنساني بالطريقة ذاتها والمقدار نفسه، بل نجد أن بعض السمات دون غيرها تتبدى في مجال ما دون الآخر، وبدرجات متفاوتة.
- تختلف العلمانية من بلد لآخر حسب الظروف التاريخية والثقافية والاجتماعية لكل بلد.
- تحقّق حلقة ما من المتتالية لا تجبّ بالضرورة ما يسبقها من حلقات.

- حتمية الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة هي مسألة غير محسومة.

- الإنسان الفرد لا يتبنّى، بالضرورة، النموذج السائد في مجتمعه بقضه وقضيه. فمعظم البشر يعيشون حياتهم المتعينة مستخدمين أكثر من نموذج وأكثر من مرجعية، بعضها قد يكون متناقضاً تماماً مع البعض الآخر.

- عقل الإنسان ليس، كما يتوهم البعض، صفحة مادية بيضاء تتراكم عليها المعرفة بألية. وإنما هو كيان مركّب لأقصى حد، محاط بالأسرار والألغاز، يتلقّى المعلومات، ولكنه يصوغها ويضيف إليها، ويثقي ويستبعد منها.

- التفسير التراكمي لا يكفي لتفسير جاذبية النموذج التحديتي العلماني الشامل، وأحد أهم أسباب نجاحه على المستوى

يفرض المعنى الذي يريده، الدولة باعتبارها المُعرّف الأكبر).
 • البرجماتية كـ "نيتشوية الضعفاء" (التكيف الدائم مع الأمر الواقع).

"العلمانية الشاملة" والنظرية الاجتماعية:

بكونها جزء من فكر الحدائث ومشروعها، وفي ضوء "النماذج المعرفية المركبة" لدى المسيري، ومفهوم "العلمانية الشاملة"، وامتثاليتها النماذجية، ولحظاتها النماذجية، واستدراكاتها، وظاهرة الترانسفير. يمكن النظر إلى النظريات والتيارات المختلفة في علم الاجتماع عبر مراحلها المختلفة باعتبارها تجسّدت وتمظهرات متعددة ضمن الحلقات المتعاقبة والمتداخلة للمتتالية النماذجية العلمانية.

وعندما نقول أنّ نظريات وتيارات علم الاجتماع هي تجسّدت وتمظهرات ضمن حلقات المتتالية النماذجية العلمانية فهذا يعني:

- إنّ هذه النظريات والتيارات، كما تهدف أي معرفة علمية، هي محاولة لتفسير المظاهر/ السمات/ السيرورات المتعلقة بحلقة/ حلقات بعينها ضمن المتتالية العلمانية..
 - أو إنّ هذه النظريات والتيارات هي محاولة لتأكيد - نفي المظاهر/ السمات/ السيرورات المتعلقة بحلقة/ حلقات بعينها ضمن المتتالية العلمانية (تحول العلم إلى إيديولوجيا بلغة هارمان).

- أو إنّ هذه النظريات والتيارات هي محاولة لتكريس وتوظيف المظاهر/ السمات/ السيرورات المتعلقة بحلقة/ حلقات بعينها ضمن المتتالية العلمانية (تحول العلم إلى خطاب بلغة هارمان).

- أو إنّ هذه النظريات والتيارات هي بحد ذاتها مظهر/ سمة/ سيرورة لخضوع علم الاجتماع نفسه لعمليات العلمنة التي تتضمنها المتتالية العلمانية (الإمبريالية العلمية بلغة هارمان).

يعزز مما تقدّم أنّ "المسيري" في معرض مراجعته لمفهوم العلمانية في العالمين الغربي والعربي لتوضيح تداخل حقله الدلالي، وتفكيكه من أجل إعادة تعريفه بطريقة أكثر تركيبية وتفسيرية، قد قام بتفكيك وتركيب بعض المصطلحات والظواهر قريبة الصلة بالعلمانية، والتي تشترك معها بكونها

مؤشر على نموذج حركي مادي يصيب الإنسان في الصميم، ويعيد تعريفه تعريفاً يودي به.

• بدأ الترانسفير الوجداني أو الفكري أو الاستمولوجي (المعرفي) الأولي بحركة الاكتشافات (الترانسفير من مكان لآخر)، والثورة التجريدية (الترانسفير من الخاص إلى العام)، وقطع الغيار (الترانسفير من قطعة لأخرى).. وكلّها مرتبطة بشكل أو آخر بالتطور العسكري لأوروبا.

• بدأت عملية "الترانسفير" الحقيقية في الحل الإمبريالي لمشكلات أوروبا، أي تصدير هذا المشكلات من أوروبا إلى الشرق:

- تصدير المشكلات الاجتماعية.

- تصدير المشكلات الاقتصادية.

• من أشكال "الترانسفير" المهمة الترانسفير المعرفي/ اللغوي الذي تم في عصر الإصلاح الديني (نقل المفاهيم الدينية من المستوى المجازي إلى المستوى الحرفي المادي).

• تبلور "الترانسفير" كمنط إدراكي مع هيمنة عقيدة التقدّم على الإنسان الغربي.

• تعبير "الترانسفير" عن نفسه في المنظومة الجمالية.

• أصبح "الترانسفير" هو الشكل الحضاري الأساسي بكون "حضارة الفوارغ" و"التآكل المخطط" هي في جوهرها حضارة ترانسفير.

• انتقال "الترانسفير" إلى رؤية الذات (المنزل كاستثمار، تغيير العمل، بيوت المسنين، الجنس العرّضي، التفضيل أو الميل الجنسي، اختلاف أشكال التنظيم الاجتماعي/ الأسرة).

• وصول "الترانسفير" إلى قمته وتكريسه تماماً عندما يختفي مفهوم الطبيعة البشرية في العلوم الإنسانية الغربية.

• وصول "الترانسفير" إلى قمته على مستوى الممارسة فيما يسمّى "تنميط المجتمع": تنميط الحياة المادية (البرانية)، تنميط الحياة النفسية (الجوانية)/ "صناعة اللذة".

• النظام العالمي الجديد كتعبير عن تصوّر العالم الغربي أنّ إستمولوجيا الترانسفير والمرجعية المادية هيمنت تماماً على العالم بأسره، وغزت البلاد والشعوب والعقول كافة.

• تغلغل مفهوم "الترانسفير" في اللغة الإنسانية وعلاقة الدال بالمدلول (من خلال القوة وحدها يستطيع الإنسان أن

الغربية ونسقتها الفكرية (برؤيتها لله والإنسان والكون) مرجعيتها ونقطة انطلاقها.

والانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ومن نظرية لنظرية، ومن تيار لتيار، هو مظهر للترانسفير الابدستمولوجي (المعرفي) واستمرار له، وذلك باعتبار أنّ هذا الانتقال/ "الترانسفير" هو "تمط إدراكي" وجوهراً أصيل في بُنية الحضارة الغربية.

وبالعودة إلى كتاب (هارمان)، فإنّه يورد ستة تيارات رئيسية في علم الاجتماع هي:

- 1- الوضعية.
- 2- الجدلية.
- 3- مقاربات الفهم.
- 4- البنائية الوظيفية.
- 5- البنوية.
- 6- علم الممارسة.

ولو أردنا بشكل مبدئي وسريع تسكين أو مَوْضعة هذه التيارات ضمن الحلقات الرئيسية للمتتالية النماذجية العلمانية كما يقدّمها "المسيري"، لوجدناها تتوزع بالطريقة المبينة في جدول رقم (2) تالياً، وذلك وبالاعتماد على الفكرة الرئيسية أو الفرض الرئيس الذي ينطلق منه كل تيار:

جدول رقم (2)

توزيع التيارات الرئيسية لعلم الاجتماع لدى (جاك هارمان) على الحلقات الرئيسية للمتتالية النماذجية العلمانية لدى "عبد الوهاب المسيري"

الحلقة الرئيسية	التيار	الفكرة/ الفرض الرئيسي
(1) الحلول أو الكمون.		
(2) الثنائية الصلبة (الإنسان في مقابل الطبيعة).	الجدلية	الثنائيات/ الأضداد
(3) انحلال الثنائية الصلبة إلى واحدة مادية صلبة.	الوضعية	وحدة العلوم
(4) تفكيك الإنسان: ردّ الإنسان إلى الطبيعة/ المادة.	مقاربات الفهم والتأويل	العقلانية العلمية
(5) إعادة صياغة صورة الإنسان.	البنائية الوظيفية	النسق
(6) الترشيده المادي		
(7) الإمبريالية.		
(8) تصاعد عمليات الترشيده المادي.	البنوية	البرهنة الموضوعية
(9) تفكيك الإنسان تماماً وسيادة النسبية.	علم الممارسة	التمييز بين الفعل والممارسة
(10) تقويض "الموضوع" الطبيعي/ المادي.		
(11) عولمة العلمانية في مرحلة السيولة.		

تنطلق من ذات فكر الاستتارة والحدثة الغربيين، وذات النسق الفكري للحدثة الغربية، وبأنّها تمس الإنسان والفرد في صميم حياته اليومية. هذه المصطلحات هي نفسها التي استخدمتها علماء اجتماع ومفكرون غربيون لوصف بعض ظواهر المجتمع الغربي الحديث، وتمثل مفاتيح أساسية للفهم والتحليل ضمن التراث والتراكم المعرفي لعلم الاجتماع (انظر: المسيري، 2008، مجلد 1، 127-159):

- التطبيع والتحييد.
- التعاقدية والحوسلة والتكنوقراطية.
- العقل الأداتي والعقل النقدي.
- التسلّع والتوتّن والتشيؤ.
- الاغتراب والتميط.
- الإنسان ذو البعد الواحد.
- نهاية التاريخ.

بكلمات أخرى، إنّ المراحل والنظريات والتيارات المتعددة في علم الاجتماع، أو ما يسميه (هارمان) الأنموذجيات السوسولوجية، ليست معزولة عن بعضها البعض، ولا تشكّل عوالم افتراضية عشوائية أو أشكالاً من حياة علمية مجرّاة.. بل هي حلقات متعاقبة ومتداخلة على مُتصل تمثل الحدثة

بعنوان "النظرية المعاصرة في علم الاجتماع: تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية" تصنيفاً أكثر تنظيماً وتفصيلاً للتراث النظري لعلم الاجتماع، وهو ما يجعل هذا التصنيف الأفضل قياساً بالتصنيفات الأخرى المذكورة ليكون منطلقاً لأي بحث مستقبلي يمكن القيام به من وحي هذا البحث التأصيلي.

وبعيداً عن التصنيفات العمومية أعلاه، لو أردنا أن نكون أكثر دقة وتفصيلاً، لربما وجدنا أنّ التيار النظري الواحد ضمن علم الاجتماع يمكن تتبع حركته وتطوره عبر أكثر من حلقة من حلقات المتتالية العلمانية، وبالتالي يمكن أن يكون هذا بحد ذاته موضوعاً لمزيد من الأبحاث والدراسات التي تُبنى على هذا البحث وفكرته التأصيلية في المستقبل.

فعلى سبيل المثال "الوضعية" في صورتها الأولى، هي غير "الوضعية" في صورتها المحدثه، وكل منهما تمثلان حلقة مختلفة عبر حلقات المتتالية العلمانية. و"النظرية النقدية" أو "مدرسة فرانكفورت" في جذورها الأولى التي تستقي من (لوكاش)، هي غير "مدرسة فرانكفورت" كما استقرت لدى الجيل الأول من أبنائها، وهي كذلك غير "مدرسة فرانكفورت" كما استقرت لدى (هابرماس) حالياً باعتباره ممثل الجيل الثالث من أبناء هذه المدرسة.

وبالمثل، يمكن حتى تتبع تطورات الفكر السوسولوجي لعلماء اجتماع بعينهم عبر أكثر من حلقة من حلقات المتتالية النموذجية، فعلى سبيل المثال ماركس "المثالي"، أو ماركس (الهيغلي) هو قطعاً غير (ماركس) المتأثر بمادية (فيورباخ)، أو ماركس "المادي".

ويلاحظ في الجدول رقم (2) أنّ المعرفة النظرية في علم الاجتماع كما نعرفه، أو كما يُدرّس، أو كما استقر كـ مجال معرفي وتخصص قائم بحد ذاته، لا تتطابق مع بداية المتتالية العلمانية، بل هي تبدأ من حلقة تالية من حلقات المتتالية، وهو ما يشي أنّ المنظورات السوسولوجية في علم الاجتماع هي امتداد للمنظورات والطروحات والجدالات الفلسفية والفكرية والمعرفية السابقة التي شابت فكر الاستتارة والحدائفة الغربيين.

كما أنّ بعض نظريات وطروحات علم الاجتماع تأتي كـ "جيوب مقاومة" على حد تعبير "المسيري" انطلاقاً من الاستدراك الذي أورده بأنّ "تحقق حلقة ما من المتتالية لا تجبّ بالضرورة ما يسبقها من حلقات"، فمثلاً طروحات مثل

كما سبقت الإشارة، هذا التوزيع أو "الموضّعة" هو توزيع مبدئي وسريع من قبيل التدليل والتأكيد على الفكرة الرئيسية التي يحاول هذا البحث التأصيل لها، والاعتماد على التصنيف الذي أورده (هارمان) هو فقط من قبيل أنّ هذا البحث قد انطلق من كتاب (هارمان) والأسئلة المعرفية التي طرحها في كتابه. ولكن هناك كتاب آخرون يوردون تصنيفات أخرى للتيارات الرئيسية في علم الاجتماع قد تكون أصح (أي التصنيفات) للاستخدام في حال أردنا الانتقال في هذا البحث من التأصيل إلى التطبيق.

فعلى سبيل المثال، يستعرض (انتوني جيدنز) في الفصل الأول من كتابه "علم الاجتماع" تطوّر الفكر الاجتماعي العلمي ابتداءً بأوائل المنظرين، مروراً بـ (أوغست كونت) و(إميل دوركايم) و(كارل ماركس) و(ماكس فيبر)، وصولاً إلى تبلور المنظورات الحديثة في علم الاجتماع وهي: الوظيفية، ومنظور الصراع، ومنظور الفعل الاجتماعي، والتفاعلية الرمزية.

ويعود (جيدنز) في الفصل الحادي والعشرين/ الأخير من كتابه إلى للحديث عن التفكير النظري في علم الاجتماع من خلال أربعة مآزق في علم الاجتماع المعاصر هي: مآزق الفعل البشري: البنية والفعل، ومآزق الإجماع والصراع، ومشكلة الجنوسة، ومآزق تشكيل العالم الحديث. ليتطرق بعدها لنظريات حديثة ونظرية ما بعد الحدائفة مع إيراد أسماء بعينها مثل: (ميشيل فوكو)، و(بورغن هابرماس: الديمقراطية والمجال العام)، و(أولريخ بك: مجتمع المخاطرة)، و(مانويل كاستلز: اقتصاد الشبكات)، و(انتوني جيدنز: الانعكاسية الاجتماعية).

أما (ميل تشيرتون) و(آن براون) في كتابهما بعنوان "علم الاجتماع: النظرية والمنهج" فيستعرضان التراث النظري لعلم الاجتماع من خلال أربعة فصول رئيسية: الأول [الثاني في تنويب الكتاب نفسه] بعنوان "النظرية التقليدية"، والثاني بعنوان "المعارك النظرية"، والثالث بعنوان "النظريات المعاصرة"، والرابع بعنوان "القضايا الخلافية المعاصرة" حيث تشمل هذه القضايا الخلافية: ما بعد البنيوية، والتشكّل البنائي، ونظرية شبكة الفاعلين، والحدائفة في مواجهة ما بعد الحدائفة، والعولمة (عالم واحد أم مجتمع من الدول؟)، وعلم اجتماع المجتمع أم علم اجتماع الذات؟ ومجتمع المخاطر.

وبدورهما، يورد (رث والاس) و(ألسون وولف) في كتابهما

تصف من دون أن تفسر، وتستنتج من دون إقامة برهان.

ثانيا: النماذج المعرفية المركبة كما يقدمها "المسيري" يمكن أن تكون منهجا قائما بحد ذاته للبحث العلمي يقف جنبا إلى جنب مع مناهج البحث المتعارف عليها حاليا. أو على أقل تقدير، يمكن أن تكون مقاربة شمولية ضمن مناهج البحوث التاريخية/ النقدية تتيح الجمع والإفادة مما هو كمي ونوعي، والحفر، وتتبع الظاهرة الواحدة عبر الزمان.

ثالثا: المتتالية النماذجية للعلمانية كما يقدمها "المسيري" يمكن أن تكون أساسا لمقياس (index) يمكن تطويره من أجل قياس مدى تركّز أو كثافة العمليات الكامنة للعلمنة البنوية الشاملة في مجتمع ما من المجتمعات في لحظة معطاة من الزمن.

التوصيات:

أولاً: تنبّي "النماذج المعرفية المركبة" كما يقدمها "عبد الوهاب المسيري" كإطار نظري للقيام بالمزيد من الأبحاث والدراسات من أجل تفسير مختلف الظواهر الاجتماعية والإنسانية.

ثانيا: القيام ببحوث أو دراسات "جينولوجية" موسعة تقوم بتسكين المعرفة العلمية المتراكمة في علم الاجتماع وتقاطعها مع بقية العلوم الاجتماعية والإنسانية ضمن الحلقات المتعاقبة والمتداخلة للمتتالية النماذجية العلمانية الذي يقترحها "عبد الوهاب المسيري"، وبحيث تكون "وحدة التحليل" ضمن هذه الدراسات النظرية الواحدة و/أو العالم الواحد و/أو المفهوم الواحد.

ثالثا: اعتماد جدول المتتالية النماذجية للعلمانية الشاملة ومؤشرات العلمنة الشاملة التي يوردها "المسيري" كمقياس (index)، وتطوير "تعريفات إجرائية" قابلة للقياس كميًا لكل مظهر/ سمة/ سيرورة/ مؤشّر، وذلك للقيام بدراسات كمية/ مسحية/ وصفية يمكن الاستفادة منها كمُدخلات ترفد التحليل النوعي الذي يقترحه مفهومي "العلمانية الشاملة" و"الترانسفير" لمختلف الظواهر الاجتماعية والطبيعية.

مع الإشارة هنا إلى ما يورده "المسيري" نفسه من أنّه "بإمكان الباحث أن يطور لنفسه عددا كبيرا من المؤشرات ويختبرها بنفسه (تزايد الاحتفال بأعياد الميلاد- شيوع طعام التيك أوي- شيوع الإباحية. تزايد أفلام العنف... إلخ)، شريطة

طروحات "جيدنز" و"هابرماس" و"باومان" التي تحاول إعادة التأكيد على "الحدّات" ومشروعها يمكن اعتبارها بمثابة جيوب مقاومة ضد "ما بعد الحدّات"، أو "عولمة العلمانية في مرحلة السيولة" حسب تعبير المسيري.

النتائج:

أولاً: النماذج المعرفية المركبة كما يقدّمها المسيري، ومفهوم العلمانية الشاملة بمتتاليته النماذجية، ولحظاته النماذجية، واستدراكاته، ومفهوم "الترانسفير" كأحد أهم تجلّياته، ومؤشرات "العلمنة الشاملة" وإشكالياتها.. يمكن أن تمثل جميعها إطارا نظريا نقديا يمكن من خلاله تفسير الظواهر الاجتماعية (والإنسانية) المختلفة بما يحقق ما يلي:

- تلافي التناقض أو التعارض الظاهري بين المنظورات والتيارات والنظريات المختلفة في علم الاجتماع..
- إمكانية توظيف أكثر من منظور وتيار ونظرية اجتماعية في آن واحد من أجل تفسير الظاهرة الواحدة..

- إمكانية دراسة وتفسير الظواهر الاجتماعية في كليتها بعيدا عن التفسيرات الأحادية الخطية المُخلّة..

- إمكانية دراسة وتفسير الظواهر الاجتماعية عبر مختلف مستويات وجودها وتحققها: الماكرو، والبيني، والميكرو.

- إمكانية دراسة وتفسير العلاقة بين الفعل/ الفاعل الاجتماعي والبنية (الذات والموضوع بلغة الفلسفة).

- إمكانية دراسة وتفسير التغير الاجتماعي.

- إمكانية التجاوز/ النقد من دون الانسلاخ عن الواقع أو السقوط في الأدلجة (من أيديولوجيا) أو الخطابية أو الدوغمائية.

- تلافي الحتميات والثنائيات المتضادة (إما . أو).

- مراعاة الخصوصيات والاختلافات الثقافية في الزمان والمكان بما يتيح استدماج الاثنوجرافيا والاثنروبولوجيا والاثنولوجيا والأساليب الحقلية في دراسات وبحوث علم الاجتماع.

- إمكانية إعطاء تفسيرات نوعية للظواهر الاجتماعية تتجاوز الممارسة الطقوسية للبحوث الاجتماعية الكمية التي

ما من مؤشرات العلمانية الشاملة في سياق ما قد يصبح مؤشرا للتدين في سياق آخر (والعكس أيضا صحيح)، وأن ما يحدد ذلك هو الإطار الكلي" (المسيري، 2008، 240.239).
رابعاً: إنشاء كرسي باسم "كرسي عبد الوهاب المسيري للدراسات الاجتماعية" ضمن أقسام علم الاجتماع أو مراكز ومعاهد الأبحاث المتخصصة في العلوم الاجتماعية.

أن يستخدم المؤشرات بحدس شديد، وأن يتدكر أن ثمة فروقا عميقة بين المؤشر في العلوم الإنسانية وبينه في العلوم الطبيعية.. كما ينبغي ملاحظة أن مؤشرا ما في عصر التحديث والحدثة (والثنائية الصلبة) قد يختلف مضمونه تماما في عصر ما بعد الحدثة (السيولة الشاملة) رغم ثبات المؤشر نفسه. وعلى الباحث أن يضع المؤشرات في سياق أوسع، وأن يدرك المعنى الداخلي الذي يسقطه الفاعل عليها، وأن مؤشرا

المصادر والمراجع

المسيري، عبد الوهاب، 2008، *العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة*، م 2، ط 3، القاهرة، دار الشروق.
 هارمان، جاك، 2010، تر: العياشي عنصر، *خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية*، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع.
 والاس، رث، وألسون وولف، 2011، تر: محمد عبد الكريم الحوراني، *النظرية المعاصرة في علم الاجتماع: تمدد آفاق النظرية الاجتماعية*، عمان، دار مجدلاي للنشر والتوزيع.

جيدنز، أنتوني، 2005، تر: فايز الضياغ، *علم الاجتماع*، بيروت، المنظمة العربية للنشر.
 تشيرتون، ميل، وأن براون، 2012، تر: هناء الجوهري، *علم الاجتماع: النظرية والمنهج*، القاهرة، المركز القومي للترجمة.
 المسيري، عبد الوهاب، 2008، *العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة*، م 1، ط 3، القاهرة، دار الشروق.

"Compound Cognitive Models" by "Abdul-Wahhab Al-Messiri" and Social Theory: A Foundational Study

Kamal Mirza¹, Ayed Wraikat²

ABSTRACT

Unifying different social theories under one Grand Theory, or in accordance with a unified Sociological Perspective, has been an ongoing endeavor within the theoretical and academic heritage of Sociology. This research argues that the “Complex Cognitive Models” as shaped by “Abdelwahab Elmessiri”, and as represented through his concepts of “Comprehensive Secularism” and “Transfer”, are all together a valid theoretical framework. This framework through which Social Theories, or the so called “Grand Approaches” of Sociology as addressed by “Jacques Herman” in his book “Les Lanages De La Sociologie”, can be unified, and can subsequently resolve any nominal conflicts or contradictions between these theories and approaches.

Keywords: Abdelwahab Elmessiri, Complex Cognitive Models, Jacques Herman, Social Theories, Transfer.

¹ PhD student, Department of Sociology, School of Arts, The University of Jordan.

² Prof., Department of Sociology, School of Arts, The University of Jordan.

Received on 20/6/2022. Accepted for Publication on 26/10/2022.